اسم المادة: النص الأدبي القديم(نثر).

الفئة المستهدفة: سنة الأولى جذع مشترك أدب عربي LMD

الأفواج: 1-2-3-4.

عنوان الدرس: الرسائل الديوانية والإخوانية في المشرق والأندلس والمغرب.

أهداف الدرس: أن يتعرف الطالب على الرسالة وبنائها وخصائصها.

<u>الدرس التطبيقي 08</u>: الرسائل الديوانية والإخوانية في المشرق والأندلس والمغرب.

إذا كانت الرسائل الديوانية ـ التي يسميها بعضهم بالرسائل السياسية أو السلطانية أو الرسمية. تعالج شؤون الإدارة، فإن الرسائل الإخوانية تصور عواطف الناس ومشاعرهم في الخوف والرجاء والرهبة والمديح والهجاء والتهاني والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية. أما الرسائل الأدبية فهي التي كانت «تعنى بالكتابة في موضوع محدد، مما نسميه اليوم باسم المقالات.

*** الرسالة: بناؤها وخصائصها الفنية**

إن الرسالة بأنواعها وأصنافها المختلفة تستمد أهميتها وقيمتها من أمرين اثنين هما: الخصائص والوظائف. وإذا كان الجانب الكمي (ومن ذلك كثرة الأنواع وتعددها)، يشهد على مدى حضور وانتشار هذا الجنس الأدبي، فإن الجوانب النوعية تعد دليلا على مدى تطوره وارتقائه. لهذا يصبح من الواجب إيلاء الجوانب الفنية في الرسالة عناية خاصة.

وتحقيقا لذلك نشير إلى أن « الكتابة الفنية بدأت مع الرسائل، ثم خطت أهم خطواتها مع الكتابة الديوانية، ومع وجود الكاتب المثقف المتخصص». ومعنى هذا أن الكتابة النثرية لم تصبح كتابة فنية إلا بعد إنشاء الدواوين، وإسناد مهمة الكتابة فيها إلى الكتاب المتخصصين الذين تفرغوا لكتابة الرسائل فبرعوا فيها وأجادوا.

كما أن بعض القدامى عالجوا كثيرا من الظواهر الفنية في الرسالة، وقدموا قراءات لا يمكن إنكار أهميتها، وخاصة ما تعلق منها بمحاولات تجنيس الرسالة والكشف عن بنائها وخصائصها، وفي هذا الإطار يقول صاحب "الصناعتين": «واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنها كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب، مثل فواصل الرسائل ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها والرسالة يكتب بها.

لهذا النص قيمة كبرى وأهمية خاصة لكونه:

أ ـ يعكس وعي صاحب "الصناعتين" بمسألة الأجناس الأدبية واستحضاره لها في حديثه عن الرسائل والخطب.

ب ـ يترجم رغبته في تجنيس الرسائل والخطب اعتمادا على آليات محددة هي: المشابهة (متشاكلتان . يتشاكلان)، والممايزة (ولا فرق).

ج ـ يعرف الرسائل والخطب باعتماد آلية المقارنة المضمرة لكونه يستحضر، في هذا التعريف، جنس الشعر باعتباره الأصل أو المعيار الذي يُحتكم إليه في كل عملية تجنيسية (كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية)

د ـ تصبح الرسائل والخطب هما الكلام غير الموزون وغير المقفى، إنهما جنسان أدبيان متقاربان، لكنهما متمايزان عن جنس الشعر.

هـ ـ ومعنى ذلك أن صاحب "الصناعتين" يجمع بين المتشابه من الأجناس (الخطب والرسائل) ليميزها عن الأجناس المباينة لهما (الشعر).

و– غير أن رغبته في مزيد من التدقيق و التعميق دفعت به إلى محاولة التمييز بين الأجناس، إذ عمد ـ بعد التأليف بين الرسائل والخطب لكونهما يتشابهان لفظا وأسلوبا وبناء ـ إلى التفريق بينهما لأنهما يختلفان من حيث طريقة الأداء: فالخطب جنس شفاهي، أما الرسائل فهي جنس كتابي.

*** بناء الرسالة:**

إن عناية صاحب "الصناعتين" وشغفه بالأجناس الأدبية السائدة في عصره، دفع به بعد عملية التجنيس باعتبارها وصفا لما هو كائن، إلى الشروع في عملية التنظير للأجناس الأدبية بوصفها تقريرا لما ينبغي أن تكون عليه تلك الأجناس، وفي هذا الإطار يقول أبو هلال العسكري: «و اعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل و الخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط و لا يلزمك فيها السجع فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد).

إن أبا هلال العسكري يتحدث بلسان "المعلم" القادر على التلقين والإرشاد في مجال الكتابة، موجها الخطاب إلى متعلم (متلق) ذي مواصفات محددة، لهذا خاطبه ب"اعلم" و"يلزمك"، تنبيها له وإعلاما بما يجب أن يحيط به من شروط و معايير يستلزمها تأليف الرسائل والخطب، واللتان يشترط فيهما أن يبنى أسلوبهما (فواصلهما) على الازدواج. أما السجع فمستحسن ما لم "يستكره"، أو يكتنفه "تنافر وتعقيد."

إن كلام أبي هلال لم يخرج عن إطار الإلزام والاستحسان، وبهذا ينخرط صاحب "الصناعتين" في الدفاع عن القيم الفنية والمعايير الجمالية السائدة في عصره، وهو الأمر الذي عكس جانبا من تصوره لـ"الكتابة" حيث كشف عن بعض المكونات التي تسهم في بناء جنسي "الرسائل" و"الخطب."

إن السجع (ومنه الازدواج) يصبح من العلامات اللفظية المميزة للرسائل والخطب. و بناء على ذلك يمكن النظر إلى الرسالة باعتبارها كتابة نثرية مسجوعة كانت أو مزدوجة.

إن دراسة القدامى لجنس الرسالة وتنظيرهم لها سارا في اتجاهين مختلفين لكنهما متكاملان، ويتمثل الأول منهما في عنايتهم ب"المرسل إليه".أما الثاني فيكشف عن مدى احتفائهم بالرسالة ذاتها.

أ ـ المرسل إليه: للمرسل إليه حضور بارز في كتابات القدامى وخطاباتهم باعتباره من العناصر الرئيسة المسهمة في عملية التواصل. ومن مظاهر احتفائهم بالمتلقي تأكيدهم على ضرورة مراعاة قدراته العقلية ومستوياته المعرفية والاجتماعية، يقول صاحب "الصناعتين": « فأول ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك.. مكاتبة كل فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق ». و كل ذلك لاقتناع أبي هلال بأن المخاطبين فئات و مستويات يجدر بالخطاب أن يراعي طبقتهم ومنطقهم.

ب ـ النص/ الرسالة: أما من حيث احتفاؤهم بالنص، فتنبغي الإشارة إلى أن الدارسين اعتنوا بمجموعة من العناصر المكونة لمعمار الرسالة، ومنها: الصدر(أو الاستفتاح)، والغرض ، والخاتمة.

إن هذه العناصر وغيرها هي التي تسهم في بناء الرسالة الفنية التي تعتبر« قطعة نثرية واحدة تتجزأ في ثلاثة أقسام وعناصر مختلفة هي: البداية أو الصدر والمتن ثم النهاية أو الختام... وهناك اتصال وثيق بين هذه العناصر التي تكون الشكل الفني المميز للرسالة بين أشكال النثر الفني الأخرى.

ج- الصدر أو الابتداء:

لصدر الرسالة أهمية خاصة لكونه يعتبر مفتتح الخطاب، لهذا يشترط فيه ما لا يشترط في غيره، لأنه «إذا كان الابتداء حسنا بديعا ومليحا رشيقا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام.

إن للابتداء، إذن، وظيفة تحفيزية تتمثل في حمل المتلقي على الاستماع والانتباه، ولهذا يشترط في صدر الخطاب الحسن والرشاقة لما لهما من آثار نفسية إيجابية.

ويؤكد صاحب "المثل السائر" على أهمية "المطلع" في الكتابة فيقول: « (الأول) أن يكون مطلع الكتاب عليه حدة ورشاقة فإن الكاتب من أجاد المطلع أو يكون مبنيا على مقصد الكتاب ولهذا باب يسمى باب المبادي والافتتاحات .

ويؤرخ إبراهيم بن المدبر لصدور الرسائل فيقول: « وأما صدور السلف فإنما كانت من فلان بن فلان إلى فلان، كذلك جرت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم... وكتب أصحابه والتابعين كذلك، حتى استخلص الكتاب هذه المحدثات من بدائع الصدور، واستنبطوا لطيف الكلام، ورتبوا لكل رتبة، وجروا على تلك السنة الماضية إلى عصرنا هذا.

والابتداء أنواع إذ يمكن أن يكون بـ"البسملة" كما كتب الجاحظ إلى بعض إخوانه ذامّا الزمان: « بسم الله الرحمن الرحيم حفظك الله حفظ من وفقه للقناعة، واستعمله بالطاعة، كتبت إليك وحالي حال من كثفت غمومه، وأشكلت عليه أموره، واشتبه عليه حال دهره...».. كما يمكن أن يكون الابتداء ب"التحميد": «و لهذا جعل أكثر الابتداءات بالحمد لله، لأن النفوس تتشوف للثناء على الله فهو داعية إلى الاستماع».وقد يكون الابتداء بـ"التحميد" مناسبا لنوع الرسالة، يقول ضياء الدين ابن الأثير: « (ومن الحذاقة في هذا الباب) أن تجعل التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب«

بيد أن صدر الرسالة قد يتضمن مكونات أخرى إلى جانب "التحميد"، ومن ذلك "السلام". يقول أبو هلال العسكري:« وتكتب في أول الكتاب "سلام عليك" وفي آخره "والسلام عليك"». ومن ذلك قول عمر بن العزيز مخاطبا أهل الشام: « سلام عليكم ورحمة الله، أما بعد: فإنه من أكثر ذكر الموت قل كلامه، ومن علم أن الموت حق رضي اليسير، والسلام.«

وفضلا عن ذلك، درج بعض الكتاب على استعمال ألفاظ وعبارات في صدور رسائلهم، يكون الغرض منها ربط الصدر بالمقاطع الأخرى من الرسالة، ومن ذلك عبارة (أما بعد). يقول صاحب "الإحكام": « و نظرت . أعزك الله . في صدور الرسائل واستفتاحها فوجدتها أيضا تختلف. فكانوا في الزمان الأول يكتبون في صدور رسائلهم: أما بعد ». ومن ذلك كتاب أبي العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة حيث يقول: « أما بعد: فإني توسلت إليك في طلب نائلك بأسباب الأمل، وذرائع الحمد، فرارا من الفقر، ورجاء للغنى، فازددتُ بهما بعدا مما فيه تقرَّبْتُ وقربا مما فيه تبعَّدْتُ، وقد قسمتُ اللائمة بيني وبينك، لأني أخطأتُ في سؤالك، وأخطأتَ في منعي.«...

إن استقراء أبي القاسم الإشبيلي لصدور الرسائل انتهى به إلى الوقوف على حقيقتها، فالرسائل لا تتفق في صدورها، بل إن الاختلاف قائم بينها، وهو اختلاف فرضه منطق الزمان ومقتضياته، كما أشار إلى ذلك صاحب "الإحكام"وغيره. ومن أوجه ذلك الاختلاف عدم الالتزام في صدور الرسائل ببعض العناصر كقولهم (أما بعد). وهذه حقيقة يؤكدها أبو هلال إذ يقول: «وكان الناس فيما مضى يستعملون في أول فصول الرسائل أما بعد وقد تركها اليوم جماعة من الكتاب فلا يكادون يستعملونها في شيء من كتبهم.«

ولعل أهم ما يمكن استنتاجه من النصين السابقين اتفاقهما على أن:

ـ عبارة (أما بعد) تستعمل في صدر الرسالة لا في غيره من المقاطع.

ـ وأن الكتاب استعملوها في أزمنة سابقة (الزمان الأول ـ فيما مضى.(

ومعنى ذلك أن شكل الرسالة عرف بفعل عامل الزمان تغييرات وتعديلات أوجبت التخلي عن بعض العناصر الشكلية، وابتداع عناصر أخرى.

وبهذا يصبح الصدر مقطعا من الرسالة يتألف من عناصر ثابتة وأخرى متغيرة. وهذه الاختلافات حول مكونات صدور الرسائل يعكسها كذلك اختلاف الدارسين حول تسمية هذا الجزء من الرسالة: فهو صدر و ابتداء و استفتاح، كما تثبت ذلك النصوص التي استشهدنا بها سابقا.

وخلاصة القول إن الكتاب كانوا يستفتحون رسائلهم:

ـ بتحديد اسم المرسل والمرسل إليه.

ـ بـ"التحميد."

ـ و «كانوا أيضا يستفتحون رسائلهم بقولهم: سلام عليك.«

ـ وبالبسملة و بالتصلية، حيث «تنسب إلى الرشيد أنه أول من أمر أن تبتدئ مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم». ومن الرسائل المتضمنة لأغلب تلك العناصر ما رواه الطبري من أن أبا جعفر كتب إليه: «بسم الله الرحمان الرحيم، من عبد الله: عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى عيسى ابن موسى، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد... فاقبل نصح أمير المؤمنين لك، تصلح وترشد، والسلام عليك ورحمة الله.«

*** التخلــص:**

تنبغي الإشارة إلى أن بين الصدر والغرض روابط تنبغي الإشارة إليها، لأن الكاتب لا ينتقل مباشرة إلى غرضه، بل يمهد له بعبارات تنبه المتلقي إلى ما سيأتي. وهو ما يعرف بـ"التخلص". و« هو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاسا دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع الثاني بشدة الالتيام بينهما ». ويشترط في هذا الانتقال التناسب بين مفتتح الكلام والغرض، يقول التهانوي: «وعلى الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود مع رعاية المناسبة.«

ومن التخلص استعمال الإشارة إلى غرض الرسالة: «قال أبو الفتح بن جني: وإذا كان المرسل حاذقا أشار في تحميده إلى ما جاء بالرسالة من أجله». أي أشار إلى غرضه من كتابه إعدادا للمرسل إليه أو تنبيها.

*** الغرض:**

أغراض الرسالة تختلف من نوع إلى آخر، ففي الرسالة الإخوانية يكون الغرض هو (المدح أو العتاب أو الاعتذار أو التهنئة أو الشكوى أو الرثاء أو التعزية...). ويضيف ابن وهب الكاتب أغراضا أخرى فيقول: « والترسل في أنواع من هذا، وفي الاحتجاج على من زاغ من أهل الأطراف، وذكر الفتوح، وفي الاعتذارات والمعاتبات، وغير ذلك مما يجري في الرسائل والمكاتبات». يقول أحمد بن يوسف في رسالة تندرج ضمن غرض التهنئة: «أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا إلا كنت به بَهِجاً... وقد بلغني أن الله وهب لك غلاما سَرِيا،أجملَ لك صورته، وأتمَّ خلقه، وأحسن البلاءَ فيه عندك، فاشتد سروري بذلك، وأكثرتُ حمدَ الله عليه، فبارك الله فيه، وجعله بارا تقيا، يشد عضدَك، ويكثرُ عددك، ويقرُّ عينك.«

يهنئ أحمد بن يوسف أحد إخوانه بمولوده الجديد، إذ بعد استفتاحه لرسالته بعبارة (أما بعد)، تخلص إلى غرضها الإخواني بقوله:(وقد بلغني)، مصورا جمال المولود، ومعبراعن سروره، وداعيا للمولود ولوالده.

ولقد كانت لبعض القدامى وقفات نقدية قيموا من خلالها أنواعا من الرسائل، يقول ابن الأثير عن "رسائل الصابي": «ولقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد في السلطانيات كل الإجادة وأحسن كل الإحسان... لكنه في الإخوانيات مقصر وكذلك في كتب التعازي.«

-4 الخاتمـة:

إن الخاتمة تتخذ أشكالا متعددة، كما قد تتألف من عناصر متنوعة، ومنها الدعاء حيث يخصص صاحب الرسالة خاتمتها للدعاء للمرسل إليه، لكن «ينبغي أن يكون الدعاء على حسب ما توجبه الحال بينك وبين من تكتب إليه وعلى القدر المكتوب فيه». ومعنى هذا أن الدعاء للمرسل إليه يستلزم مراعاة الأحوال وطبيعة العلاقات الكائنة بين المتراسلين وغرض الرسالة. ويزيد صاحب "الإحكام" أمر الدعاء توضيحا فيقول: «ومما يجب على الكاتب: أن يتحرى في الدعاء الألفاظ الرائقة، والمعاني اللائقة، و يتوخى من ذلك ما يناسب الحال و يشاكل المعنى ويوافق المخاطب.«

وفضلا عن الدعاء، تتألف الخاتمة من عناصر أخرى هي: التحميد، والتصلية، والسلام، والشعر، وهي بمثابة العناصر الرئيسة في كل رسالة. وهذا ما يتأكد من خلال نماذج أخرى من الرسائل على الرغم من قصرها كالرسالة التي كتبها الجاحظ إلى رجل وعده: «أما بعد، فإن شجرة وعدك قد أورقت، فليكن ثمرها سالما من جوائح المطل، والسلام». ويختم عبد الحميد رسالته إلى الكتاب داعيا ومسلما: «... تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة، بما يتولى به من سبق علمُه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.«

3ـ 2 ـ خصائص الرسالة:

تكتسب الرسالة خصائصها من فنها الأدبي الذي هو النثر، غير أنها تنفرد بخصائص أخرى تفرضها طبيعتها، أي باعتبارها جنسا أدبيا يستند إلى مكونات وسمات تميزه عن غيره من الأجناس النثرية الأخرى.

بيد أن حديثنا عن خصائص الرسالة يتعلق بنوع خاص من الرسائل هو الرسائل الفنية. أما باقي الرسائل، وخاصة تلك الرسائل التي يكون الغرض منها هو مجرد التواصل أو الإخبار، فتتضاءل فيها الخصائص الفنية أو تنعدم لأنها من قبيل الكلام الذي لا يقصد منه التأثير أو الإقناع أو الإمتاع. ولهذا «تتميز الرسالة الفنية من بين ألوان النثر الفني الأخرى بالمرونة الفنية والأسلوبية... ذلك أن تلك المرونة تسوغ للرسالة الفنية قبول خصائص الشعر من خيال وتصوير وتعبير عاطفي، وعناية بالزخارف المعنوية واللفظية». لكن ليس من الضروري أن تستمد الرسالة خصائصها من الشعر، فتصبح شعرا منثورا، وذلك لكونها قادرة على خلق "شعريتها" الخاصة والمنسجمة مع جنسها الأدبي، إذ منه تستمد الرسالة خصائصها لتشيد "شعريتها" وتسمو بها. ولهذا تدعو الضرورة إلى دراسة معمقة لجنس الرسالة ولأنواعه وفي مختلف العصور، وذلك لرصد ما عرفه من تحولات، ولتحديد الخصائص التي اكتسبها في كل مرحلة من مراحل تطوره، والتي قد تكون لفظية أو أسلوبية أو دلالية أو حجاجية، وتسهم كلها في تزيين الرسالة، وتعزيز دلالاتها وتعميقها، والرفع من قدراتها الإقناعية وقوتها التأثيرية، ولهذا قال إبراهيم المدبر: «وكلما احلولى الكلام وعذب ورق وسهلت مخارجه، كان أسهل ولوجا في الأسماع، وأشد اتصالا بالقلوب، وأخف على الأهواء».